وَرقلة
من خلال النصوص الأجنبية

د ٠ مولاى بلحميسى
معهـد العلـوم الاجتماعية
دائرة التاريخ ـ جامعة الجزائر

مقـدمـة

ان ماضى ورقلة وناحيتها تتضح معالمه من هـذه النصوص المستقاة من كتب تاريخ وحضارة وادى ميزاب ومن دراسات اجتماعية ليست دائما فى متناول القراء ولا سيما اذا كانوا من الشباب ٠

ان كثيرا من الكتاب الاوروبيين والفرنسيين بشكل خاص قد عنوا بالحياة فى صحرائنا منذ قرون ، ولـم يفتهم أن يعربوا عن اهتمام خاص بورقلة ـ ان المدينة وواحتها هما من أقدم مـا فى الصحراء ، ويبـدو أن هيرودوت وصف منظرها (32 ، 2 ٠ 2) وربما عد شعب الغارامانت السكان الاصليين لمورقلـة ٠

وهذه المقتطفات المختارة من وثائق مبعثرة أو صعبة المنال ستمكن قراء الاصالة الذين لم يتمرسوا بعد باستخدام اللغة العربية وبشكل خاص اخواننا الذين هم فى الجهة الاخرى من البحر المتوسط أن يتفرقوا على المدينة التى تحتضن فى هذه السنة ملتقى الفكر الاسلامى ٠

ورقلة ـ وصف عام حوالى 1862

تعرض المدينة أسوارها الواسعة المستديرة التى نتبين داخلها رغم الانقاض أحياءها الثلاثة الجلية التى تتألف منها ، وكل حى منها يدعى باسم البطن الذى يسكنه ٠ وهذه البطون هى : بنو سيسين ، وبنو وجين ، وبنو ابراهيم ٠ وتتألف من كل واحد من هذه الاحياء مدينة داخل المدينة وتفصله عن الاحياء الاخرى أسوار وأبواب ، وما أكثر ما دوى البارود قديما بين حى وحى ٠ ولم يكن قصرا لسلطان الراسى على ربوة صغيرة الا معقلا أو بالحرى خصبة حصينة ٠ وكان لهذه القصبة المستندة الى سور كبير مدخل شرقى لا يزال يدعى باب السلطان وباب سرى ، وكان فى هذا المعقل كل الترف الذى يسمح لكل ملك لورقلة أن يطالب به ، ومع الاسف لم يبق من حطام هذا الملك الا الخراب : مئذنة ضئيلة منتصبة وبضع حجرات هى مباءة للبؤساء ـ الانهج ضيقة لا تسمح فى أماكن شتى منها أن يرجع الفارس ادراجه ولو أراد ذلك ، وأغلب البيوت لا طوابق لها ٠ وقد بنيت من اللبن ، وكم منزل زين بابه بزخارف من الجص ونقش عليه آية من القرآن الكريم ٠

ولقد لفتت سوق ورقلة انتباهنا ٠ وليست السوق الا عبارة عن مجزرة عرضت فيها اضفاف من اللحم لاشعة الشمس المحرقة ٠ ولحم الابل يباع فيها عموما ٠

دور ورقلة فى تجارة افريقية الشمالية مع السودان

كان بجانب الطريق تاهرت ـ سجلماسة ـ غانا طريق آخر يقطع الصحراء من الناحية الشرقية فى عهد الرستميين ٠ وكانت مراحلها : واحة ورقلة فى شمال الصحراء ومدينة تادمكت التجارية (اليوم أطلال سوق) فى جنوب هذه الصحراء

فى الشمال الشرقى لمدينة غاو · وهذه الطريق التى نعرف مراحل البريد فيها بفضل الجغرافيين العرب من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر كانت تمر على مدن تنس ومليانة والمسيلة كما كانت تمر على كورة الزاب وواحة طبنة وبسكرة متجهة نحو ورقلة التى كان يسكنها طوائف شتى بربرية اباضية وكانت مركزا خطيرا تجاريا وهو ـ كمنطلق للقوافل المتجهة قديما من افريقية الشمالية الى السودان الغربى ـ صالح للمقارنة بينه وبين مركز سجلماسة على الطريق التجارية تاهرت ـ غانا ـ وحسبما ذهب اليه الادريسى المسافة بين المسيلة وورقلة تقدر بمسيرة اثنى عشر يوما بأكملها · ويغلب على الظن أن هذه الطريق كانت تمر على وادى الخير الذى كان ازدهاره متوقفا ـ من دون ما شك ـ على التجارة مع السودان التى نفقت حول التجارة الافريقية الشمالية مع السودان : « تسكن فى هذه المدينة أسر ثرية وتجار جد أثرياء يقطعون بلاد الزنوج لممارسة التجارة ويتوغلون حتى غانا وفنكاره حيث يستخرجون الذهب الذى يسك من بعد فى وارجلان بدمغة هذه المدينة » ·

ولا شك فى أن علاقات ورقلة التجارية هذه مع السودان الغربى كانت موجودة فى القرن التاسع فى عهد أئمة تاهرت الرستميين الذين امتد سلطانهم حتى شمل ايامى ورقلة ، أضف الى ذلك أن وارجلان كانت أيضا فى ذلك العصر مرحلة على الطريق التى تصل مدينة توزر (فى جنوب البلاد التونسية) بسجلماسة ·

T. Lewicki : L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII^{e} et au IX^{e} siècles - Cahiers d'Etudes Africaines N° 8, 1962. N° 5/3-535

الخطوط الكبيرة للمملكة الرستمية :

ورقلة ـ تاهرت تمتد بعيدا نحو الشرق حتى أبواب طرابلس · وثم منطقة ذات خطر هى منطقة ورقلة ـ لما أضطر آخر امام رستمى يعقوب الى فراق تيهرت هرب توا الى ورقلة · « وصل اليها دون أن يحول شىء بينه وبينها واستقبل فيها كما لو كانت بلده » ، « وغمروه بالاجلال والتعظيم وأكرموا وفادته » ·

وقع هذا سنة 909 م · وعند سقوط المملكة الرستمية صارت ورقلة مدة طويلة ملاذا للمخلصين منهم فى عاقبة الامر ، ورد فى كتاب أبى زكريا : « سير الائمة

وأخبارهم (La Chronique d'Abu Zakaria) تعود الشيخ الاباضى أن يقضى الشتاء فى وادى الخير (الذى تقع ورقلة الواحة فى أقصى جنوبيه) ثم يرجع عبر الصحراء الى بنى ميزاب » ٠

عندما صارت ورقلة نفسها بعد زمن طويل غير صالحة للسكنى اجتمع فى وادى ميزاب كل من بقى من المتمسكين بالمذهب الاباضى الجزائرى ٠

E. F. Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord, p. 305.

مقر آخر للمذهب الخارجى : سدراته

لما استولى جيش كتامة سنة 908 بقيادة أبى عبد الله الداعية الشيعى على العاصمة الرستمية هرب الذين نجوا من المجزرة الى الصحراء ولجأوا الى أحضان سكان ورقلة الاباضيين فى واحة تنتمى حسب الظواهر الى بدو سدراته ٠ وكانوا ضيوفا دوريين من مدينة تيهرت ٠ والمدينة الصحراوية سدراته أو اسدراتن ، كانت فى القرن العاشر عاصمة المذهب الاباضى ريثما تنتقل الجالية الى وادى ميزاب بمسجد ومساكن خاصة جد واسعة اخرجت بشكل غير كامل من رمال سدراته ٠

ويظن أن هندسة هذه الابنية وزخارفها المنقوشة تمثل تراث تيهرت الفنى المتبلور على أقل تقدير ـ ولوقت ما ـ فى هذا البلد البعيد ٠ فى حين أن قصر تيهرت يجعلنا نذكر المساكن الاموية ، بينما تحمل الينا أطلال سدراته صدى خافتا من بذخ الخلفاء العباسيين وفق الخوارج هذا المخالف لفن القيروان يظهر لنا متسما بالتعقد ٠ ولكنه باختصار يستمد عناصره من نفس المنابع ٠

Georges Marçais : La berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-Age, pp. 115-116.

غرغاله (ورقلة) فى القرن السادس عشر

هى مدينة عتيقة بناها النوميديون فى صحراء نوميديا ولها سور جداره مبنى بلبن غير مطبوخ وبيوت جميلة وحولها بستان نخل ـ وفى أرباضها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى ٠ وفى المدينة كثير من الحرفيين وسكانها أغنياء لصلتهم بمملكة

أغادز · ومن بين هؤلاء كثير من التجار الاجانب في البلد وبخاصة الذين قدموا من قسنطينة وتونس يحملون الى غرغاله منتوجات من بربريا ليأخذوا بدلها منتوجات يجلبها تجار أرض الزنوج · القمح واللحم مفقودان جدا · ويستهلك الناس لحم الابل والنعام · وأكثر الرجال زنوج ليس من أجل المناخ · بل لان لهؤلاء الناس اماء كثيرات· ولذلك لهم أولاد زنوج · والسكان كرام لطاف · ويستقبلون الاجانب استقبالا حسنا لان كل ما عندهم يأتيهم من هؤلاء · من ذلك القمح واللحم المملح والسودك والجوخ والقماش والاسلحة والسكاكين · وباختصار كل ما يحتاجه السكان· لها سلطان تقيم له حفلات ملكية لتكريمه · وهو يقوم بنفقات ألف فارس لحراستهم · وتدر عليه دولته مائة وخمسين ألفا من القصع الذهبية · ويدفع لجيرانه العرب غرامة باهضة ·

Léon l'Africain : Description de l'Afrique - Tome II, pp. 438-439.

الوضع الاقتصادى والسياسى فى الماضى

فى ورقلة عنصر ثالث ـ علاوة على السكان المقيمين والرحل فيها ـ وهو الطفيليون ـ ماذا نقول وبا اليهود ؟

استأذن فى ذكر حادث شخصى : وصلت الى ورقلة سنة 1898 للاشراف على الحفريات التى عهدت بها الى الولاية العامة الجزائرية ، وقد ضاق على الوقت وأردت أن أشرع فى العمل لما رأيت رسالة تخص مهمتى والبرقية الرسمية التى تخبرنى بأن المال غادر الجزائر العاصمة · وقد قيل له بطريقة لطيفة : « هذه الوثائق هى أوراق مالية » ، وأعير لى عن طيب نفسى مبلغ مائتى فرنك لمدة عشرين يوما بفضل 80 ٪ · لقاء أى نسبة مئوية يعير الصير فى اذا كانت السنة رديئة وجاء اليه رجل مسكين يطلب اليه أن يعيره ما يسد به رمقه ؟

السكان الرحل كالسكان المقيمين يكابدون أذنى كبيرا من اليهودى · ليكن عشرون قطعة معارة لقاء أقل فضل 20 ٪ ومع القبول باعارتها · ولكنها لم تقبض بعد · فاليهودى لا يحجز ابل مدينه · بل يستخدمها : « احمل لى هذا الى غدامس وأعفيك مما لى عليك هذا العام » · يحمل المسكين البضاعة على ابله ستة دائنين · ان يهود

ورقله يكتبون قائمة غرمائهم الرحل الرجل الذى يسخره لذلك · والتمور التى ينتجها السكان المقيمون مجانا · يحملها الرجل مجانا ·

والحادث باهض بقدر ما هو جديد · لم تكد تمضى سنوات منذ استخدام اليهود للربا فى الجنوب ، وقد كان للربا وقع ثقيل فى وادى ميا ووادى الخير ·

P. Blauchet : L'Oasis et le pays de Ouargla - Annales de géographie, 1900, pp. 153-154.

ورقلة فى الرحلات :

ورقلة ملكة الواحات المدعوة واحة السلاطين ، كانت عاصمة مملكة صغيرة جدا بعيدة فى الصحراء المترامية الاطراف فى وسط الرمال كأنها جزيرة خضراءفى خضم من النار محصنة بسور مبنى « بالطابية » يصونه خندق تتعهده السلطة بالاصلاح · تفتخر المدينة بانعزالها وبأسوارها لتظهر فى مظهر الملك · عندما تحمل ريح الجنوب حتى شاطىء البحر المتوسط صدى ورقلة ينصت الناس بقلق حتى كأنه السحر · ألم تكن مدينة البعد السحيق ومدينة المجاهل ؟ ــ بجانب الرحلات المظلمة كان يخيل الى الناس أنهم يسمعون حفيف النخيل يوقعه نسيم الصحراء · ويرى الناس عبر السراب المدينة المتدثرة بأسوارها يحيط بها نطاق من البساتين والنخيل ·

يزين مفرقها أكليل ملكة الواحات ملتفة فى حضرتها وبرودتها · والبقع الحمراء من الدم ملقاة على جبتها الخضراء كأنها مزق من الارجوان تزين مدينة السلاطين ·

ورحال القوافل الجريئون الراجعون منها السائقون لقطر الابل الطويلة محملة بالتمور لم ينسوا أن يقصوا قصصا شتى ملؤها العجائب · وكان لرحالة الصحراء هؤلاء هيئة تضفى على قصصهم تارة معركه دامية بين حين وحين وتارة معركة بين ورقلة ونقوسة وأحيانا بين ركام غابة النخيل فى الطرق المظلمة الملتوية المؤدية الى أبواب القصبة الملكية · وتريك تلك القباب المبيضة ابنية دينية شيدت لتذكر بالاولياء المحترمين المقدسين أو تسمعك أغانى الليل فى الجنان على ضفاف السواقى النابعة من الآبار الارتوازية ·

Cdt V. Colomieu : Voyage dans le Sahara algérien (Collect. Tour du Monde 1863, n° 169.

ورقلـــة ـ المتحـف

ورقلة مزيدة فى نوعها فى الصحراء كلها ، ليس من السهل أن نجمـــع (فى المتحف) وثائق اذا كنا نعيش فى الصحراء ولكن نتذكر هنا غالبية أمجاد الصحراوية منذ انجاز الرواد مآثرهم حتى الاستيلاء على الغط والفزان · ان تحفة من أطرف التحف ربما ترتقى فى الزمن الى ما قبل التاريخ ـ ولو منحتها الاسطورة أصلا أقـل قدما ـ هى صخرة ضخمة اسطوانية الشكل بها حز فى وسطها ذو فتحة ذات عمق قليل تمكن من ربطها بحبل · قد ادعى بعضهم أن شخصا اسمه ابن البرور توعدته تكهنات بأنه يموت بعضة جمل ، فأراد ابن البرور أن يهدىء الابل بتسطيح الطريـق بين المنيعة وورقلة · فربط جملا صغيرا فى مرداسه البدائى · ولما صار الجمل قويا أطلقه وعوضه بآخر أقل خطرا منه · ففى يوم من الايام شعر ابن البرور بعد فـوات الأوان أن لرفيقه فى العمل فكا ذا ضروس مخيفة · فأرادت البهيمة أن لا تكـــذب التكهنات وفتحت فما ضخما وهرست رأس مولاها ·

R. Pottier : Le Sahara, pp. 67-69.

اشيـــاء صحراويـــة :

ادع جانبا التجار والخضر والفواكه ورؤوس الابل ذات العيون الكابية وأتجه نحو يهود انحنوا على سنادين صغيرة بجانب نار متقدة حمراء وهم يصنعون السكاكـــين المخيفة التى يجب أن يحملها كل ورقلى حقيق بهذا الاسم على جنبه الايسر عند بلوغه سن الرشد ، وكان الشبان الرومان ـ فى هذه السن ـ يلبسون التوجة الرجولية فى عهد القياصرة ·

ولكن السوق امتلأت بالناس اكثر فأكثر وتشكلت الجموع وتهيأت الصفقـات واستحالت السوق الى بيت نمل كبير ، أذهب لانى صرت ـ فى وسط الاهلين فى حالة تختلف عن حالتهم · اسلك فى أول نهج صادفنى · وفجأة استلفت انتباهى علامة فوق باب تمثل صخرة من الحجر لها مظهر يشبه شبها غامضا رجلين موصولتين بطبق · والاطباق بعضها منكسر وبعضها سالم · دعوت رجلا من الاهلين فأخبرنى انها علامـة

التأنيث (عشتروت) اذا رئى الطبق سالما فذلك علامة على أن فى المنزل فتاة صالحة للتزويج • فاذا ثم الزواج كسر الطبق •

André Norpel : Aux portes du Sud - Nevers 1940, pp. 42-44.

ورقلـــة ـ اشتقـــاق :

ليس من المستحيل أن يكون أصل ورقلة ـ المركز الرئيسى التجارى الواقع عـلى طريق بسكرة ـ توقرت ـ الصحراء الشرقية ـ له ارتباط بازدهار التجارة الرومانية والبيزنطية فى هذه البقاع • وفى الحقيقة أن المرء قد يتساءل أن شعب الاورسيليانى الافريقى الذى ذكره فنجيس (1) بصفته كاسبا ابلا مستخدما لها فى حروبه ألا يجب أن يتماثل مع وارجلان • T. Lewicki : L'Etat nord-africain - Note 76, p. 532.

(1) Epit Rei Militaris, III, 23.